مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : …-….. Issn : 2353-043X
المجلد 02/ العـدد 01 : (2015)، ص 100-117

التعليم في الأندلس ودوره في الإزدهار الحضاري

الاستاذ : عبد الكريم فايزي
جامعة الشهيد حمَّة لخضر – الوادي- الجزائر.

ملخَّص:

اهتم الأندلسيون بالتعليم ونشره، منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها أقدام المسلمين أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، ومنذ الأيام الأولى التي أعقبت تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس، وكان للنظام التعليمي الأندلسي الدور الأبرز في المستوى الراقي الذي بلغته الحضارة الأندلسية في شتى المجالات، سنحاول من خلال هذا المقال إلقاء نظرة على التعليم في الأندلس، منهجه، مراحله، طرقه، أماكنه، عناية الخلفاء والحكام به، ودوره في الإزدهار الحضاري.

L' Education en Andalousie et son rôle dans la prospérité de la civilisation

Résumé :

Les Andalous ont intéressés de L'éducation et son propagation, dès le premier moment où les pieds des musulmans et montèrent sur la terre de la péninsule ibérique, et depuis les premiers jours après la mise en place de l'émirat omeyyade en Andalousie, le système éducatif andalouse a joué un rôle plus important dans le niveau élevé atteint par la civilisation andalouse dans divers domaines, nous allons essayer à travers cet article de donner un regard à l'éducation en Andalousie, son approche, les étapes, les méthodes, les sites par, soins des califes, et son rôle dans la prospérité de la civilisation.

مقدمة:

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الأمة الإسلامية في الأندلس قد بلغت شأناً عظيماً في مجال الحضارة والرقي الإنساني، وأنها ساهمت في نقل ما وصلت إليه من تقدم حضاري وعلمي إلى أوروبا نفسها، وأنها ضربت بسهمٍ وافرٍ وقسطٍ بالغٍ في مجالات العلوم والمعارف بصورة عامة، ومن بين الأسباب والعوامل التي أدت إلى ذلك هي إقامة الأندلسيين لنظام

تعليمي متميز وفعال، وإلى اهتمام الأندلسيين بطلب العلم، وتشجيع الحكام للعلماء والمعلمين والمتعلمين.

لقد اهتم الأندلسيون بالتعليم ونشره، منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها أقدام المسلمين أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، ومنذ الأيام الأولى التي أعقبت تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس، وقد اهتم الأندلسيون ببناء المساجد والجوامع، واعتنوا بنشرها في كامل أنحاء البلاد الأندلسية، وقاموا بإرسال أبنائهم إليها لغرض التعلم والدراسة، فخرج منهم علماء أجلاء في مختلف العلوم والمعارف، كانت مساهمتهم حاسمة في المبلغ الذي بلغته حضارة الأندلس من التقدم العلمي والرقي الحضاري.

وقد عني الأندلسيون بتعليم أنفسهم وأبنائهم، وحرصوا أشد الحرص على مكافحة الجهل والتخلف والبطالة بينهم، حتى وصفهم المقري بقوله: "وأما حال أهل الأندلس في فنون العلم فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز... وهم يقرأون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جارياً، فالعلم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم"[1].

أولاً: المنهج التعليمي الأندلسي:

كان الأندلسيون يحرصون على أن يكون القرآن الكريم هو الأساس المتين في تعليم أولادهم، ولم يكونوا يقتصرون على ذلك بل كانوا يضمُّون إليه تعلم اللغة العربية ورواية الشعر وتعليم الخط، وقد أفادهم هذا المنهج في ترسيخ المعارف المتنوعة لديهم، وكان لإقبالهم على اللغة العربية والشعر والأدب في صغرهم أثرٌ في رسوخ ملكاتهم في هذه العلوم فيما بعد[2].

وذكر ابن خلدون أن العلاَّمة "أبا بكر بن العربي"[3] قد رسم منهجاً جديداً في طريقة التعليم وهو أن يقدِّم العربية والشعر على سائر العلوم، وذلك لأن الشعر ديوان العرب، وفي تقديمه تعليم العربية ضرورة لتقويم اللغة عند الطفل، ثم ينتقل منه إلى الحساب ليلم بما لا يصح أن يجهله منه، يلي ذلك دراسة القرآن الكريم، كما نصح بأن ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه فالجدل ثم الحديث وعلومه، وينتقد ابن العربي المنهج الذي يفتتح بتعليم القرآن للصبي لعدم معرفته وفهمه لمسائله وقضاياه، كما أنه نهى بأن يجمع في التعليم بين علمين إلا أن يكون المتعلم على نصيب كبير من النباهة والقدرة على الإستيعاب[4].

وقد أثنى ابن خلدون على هذه الطريقة لكنه استصعب تطبيقها وممارستها في الواقع لأن أحوال الناس وعاداتهم تنافي تأخير القرآن وتعلمه، فهم حريصون على تقديمه لنيل المثوبة والتفاؤل ببركته في هذا الطور من النشأة، وخشية من أن يحدث للصبي – إذا ما أخر دراسته القرآن – من العوائق ما يصرفه عن العلم فيفوته تعلم القرآن وحفظه، ولو كان هناك يقين باستمرار الصبي في تحصيل العلم ومتابعة التعليم لكانت طريقة ابن العربي أحسن ما يؤخذ به في المشرق والمغرب[5].

كما أن هناك من علماء الأندلس من شارك بتجاربه وآرائه العلمية في الإدلاء بما هو أفضل في نظام التعليم، كأبي الوليد الباجي الذي أكد على صلاحية النظام التعليمي التقليدي في الأندلس، فحرص على أن يحفظ التلاميذ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ودراسة أصول الفقه الذي يعين على فهم أحكام القرآن والسنة، كما أوصى بأن يتدرب المتعلم تدريباً سليماً على أصول النظر والمناقشة والنقد السليم لمسائل العلم[6].

من هنا يتضح لنا الإجماع السائد على أهمية دراسة القرآن الكريم في بداية حياة الشخص، ومحاولة زرع الإهتمام بهذا المصدر ليكون سلوكاً وعملاً إلى جانب كونه علماً ومعرفة، وقد يكون هذا من أسباب تعميق الإهتمام بالدراسات الدينية مستقبلاً لدى التلاميذ، وهو ما قد يفسِّر سعة النشاط العلمي في هذه الدراسات، ويتبين من ذلك أيضاً مدى ما أولاه الأندلسيون لهذا الميدان من عناية واهتمام، وكيف أنهم نظموا عملية التعليم لدى الأطفال حرصاً منهم على أن ينشأ أولادهم نشأة علمية سليمة.

وكان للإهتمام العظيم بالتعليم في الأندلس وأدائه أن انصرف بعض العلماء إلى رسم المناهج التربوية التي يجب أن تتوفر في عملية التعليم، فقد صنَّف العلاَّمة "أحمد بن عفيف"[7] كتاباً في "آداب المعلمين" ويقع في خمسة أجزاء[8].

ويذكر المقري أن الأندلسيين كانوا يدفعون أجرة في سبيل تعلم العلوم، ويبدو أن الأجرة التي كانوا يدفعها الراغبون في التعلم لم تكن تتمثل فقط في دفع مبلغ من المال للعالم أو الشيخ، وإنما كانت تتمثل أيضاً في تقديم هدايا عينية له، أو إكرامه في شراء حاجة له[9]، وفي هذا يقول المقري: "والعالم عندهم مُعظَّمٌ في الخاصة والعامة، يُشار إليه، ويُنبَّه على قدره وذِكره عند الناس، ويُكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك"[10].

ثانياً: مراحل التعليم:

فيما يتعلق بمراحل التعليم، فقد كان المتعلم يمر تقريباً بأربعة مراحل:

- المرحلة الأولى: يحفظ فيها التلميذ القرآن الكريم وبعض العلوم الأخرى، ويتقن المبادئ الأولى للكتابة والخط والحساب.
- المرحلة الثانية: يتلقى فيها الدروس والعلوم بشكل أوسع وأشمل، حيث أصبح بمقدوره في هذه المرحلة تلقي شروح القرآن الكريم وقراءاته، وشروح الحديث وما يتصل بالفقه، بالإضافة إلى بعض العلوم الإنسانية والعقلية.
- المرحلة الثالثة: يتجه فيها التلميذ إلى التركيز على ما يميل إليه من العلوم، أي أنها مرحلة تخصص في علم من العلوم التي درسها بشكل عام في المرحلة الثانية[11].

وتظل مرحلة الطلب هذه إلى فترة غير محددة، ولا تنتهي تقريباً إلا حينما يجلس الشاب مجلس المعلمين، أو أن يتولى وظيفة عامة، وهناك من كان يواصل الطلب في الوقت الذي كان يدرس فيه في أوقات أخرى.

- المرحلة الرابعة: ختم كثير من الطلاب الأندلسيين جهودهم في مجال طلب العلم بالقيام برحلة علمية يستمعون فيها إلى علماء ومشايخ غير الذين تعلموا على أيديهم في مواطنهم الأصلية، وهناك نوعان من الرحلة:

الأولى منهما إلى داخل الأندلس، فينتقل الطالب من قريته إلى المدينة القريبة، ثم إلى المدن الأخرى التي تجذبه إليها شهرة معلميها، وكانت قرطبة هي العاصمة العلمية التي يتطلَّع الجميع إلى الالتحاق بمعاهدها أو سماع شيوخها، دون أن يعني ذلك عدم تمتع العواصم الأندلسية الأخرى بمكانة سامية، فهناك إشبيلية وبلنسية وسرقسطة وبطليوس وأشبونة وغرناطة وغيرها.

أما الرحلة الثانية فقد كانت إلى خارج الأندلس، حيث لم يكتف الكثيرون من طلاب الأندلس بما كان في بلادهم من مستوى علمي راق، فاتجهوا إلى الدراسة على شيوخ فاس في المغرب، ووهران وتلمسان في الجزائر، والقيروان في تونس، والفسطاط في مصر، ومكة والمدينة في الحجاز، ودمشق في الشام، وبغداد في العراق، بل واصل بعضهم الرحلة إلى بلاد فارس وما وراء النهر حيث نيسابور وبخارى وطشقند[12]، وهي أبرز الأمكنة التعليمية في العالم الإسلامي، ومقر العلماء والمدرسين الذين يرحل الطلاب إليهم

من كل مكان، ولقد اعتقد الأندلسيون أنه كلما طالت الرحلة، وزاد عدد الشيوخ الذين يلتقي بهم طالب العلم، كلما زاد ذلك في مكانة هذا الطالب عند عودته إلى بلاده.

ثالثاً: طرق التعليم:

عرفت المنظومة التعليمية في البلاد الأندلسية مجموعة من الطرق:

أ- طريقة الإقراء:

وهي من أشهر طرق التعليم، خاصة في ميداني العلوم الدينية والأدبية، وفيها يعمد الشيخ إلى القراءة أو ينوب عنه أحد الطلبة، وبقية الحاضرين يكتبون، وهو خلال ذلك يصحح ويشرح.

ومن الأمثلة على ذلك أن العلاَّمة "أحمد الداني"[13] أقرأ الناس القرآن بالروايات[14]، كما قُرئ على العلاَّمة "عبد الله بن سعيد"[15] صحيح مسلم في أسبوعين بجامع قرطبة في موعدين طويلين، الغداة والعشية[16].

ب- طريقة الإملاء:

وهو أن يتخذ العالم مجلساً يضم الطلبة، ثم يحدثهم من ذاكرته بما يحفظه من علم ومعرفة، والطلبة يكتبون ذلك عنه ويسجلونه في أوراقهم.

ومن أشهر مجالس الإملاء مجلس الحافظ عبد الرحمن بن فطيس[17] الذي تحدث عنه من حضر مجلسه أنه كان يملي على الناس الحديث، وبين يديه مستل يُسمع الناس ممن بعُد مكانه عن الشيخ[18].

وكثيراً ما كان العلماء يجمعون بين طريقتي الإقراء والإملاء، منهم على سبيل المثال العلاَّمة "عبد الله بن غزلون"[19] الذي كان عالماً بالحديث والتفسير والأدب، وكان له مجلس حافل يُقرأ عليه فيه التفسير ويتناوله بالشرح والإيضاح، كما يقوم بدعم أقواله بكثير من الأحاديث الشريفة[20].

ج- المناظرة العلمية:

تعتبر المناظرة العلمية من طرق التعليم، وفيها يطرح العالم مسألة من مسائل العلم أو حديثاً من الأحاديث، ثم يلقي الأسئلة حول ذلك الموضوع، وكان الشيخ عبد الله الطليطلي[21] "يبدأ المناظرة بذكر الله عز وجل والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يورد الحديث والحديثين والثلاثة، والموعظة، ثم يبدأ بطرح المسائل من غير الكتاب الذي كانوا يناظرون عليه فيه"[22].

والجدير بالذكر أنه كانت هنالك مناظرات علمية حرة، أي أنها لا تتقيد بحلقات العلم أو مجالس الدرس في المساجد والجوامع، بل كانت تجري في الغالب بين شخصيتين، وكان لهذه المناظرات دور كبير في تنشيط الحركة العلمية، ومن بين أشهر هذه المناظرات تلك التي جرت بين العلاَّمة الفقيه الظاهري بن حزم[23] وبين معاصره الفقيه سليمان بن خلف الباجي[24].

د- الإجازة العلمية:

تعتبر الإجازة [25]إحدى طرق التعليم، ولها أنواع كثيرة[26]، وهي عبارة عن إذن ورخصة تتضمنها وثيقة تجيز للطلبة رواية ما أُخذ عن أساتذتهم، فكان الشيوخ يمنحون مثل هذه الإجازات لمن يبيحون له الرواية عنهم، أو تدريس الآخرين الموضوعات التي تعلموها منه[27] ويعود تاريخ هذا التقليد التعليمي الإسلامي إلى القرن الثاني للهجرة[28].

وقد تُقدم الإجازة على وجهين شفوية أو تحريرية، والشفوية أقدم عهداً، أما الإجازة التحريرية ففيها يوضح الشيخ ما يجيزه للطالب، أو يجيزه بإطلاق، وهنا يحدد الشيخ تاريخ مولده ووطنه وأسماء شيوخه، وما يجب أن يُروى عنه عامة[29].

رابعاً: أماكن التعليم:

بالرغم من المستوى الذي بلغه الأندلسيون من تفوق ورقي علمي، إلا أن الظاهرة التي تلفت النظر هنا هي عدم وجود مدارس في كامل أرجاء البلاد الأندلسية، ولم تظهر المدارس في الأندلس إلا في عصور متأخرة ، وذلك خلال حكم بني الأحمر في غرناطة.

وكان الأندلسيون يبادرون إلى تعليم أبنائهم في المنزل في أولى مراحل تعليمهم، ويتجلى دور المنزل في التكوين العقلي للطفل، حيث نجد الدور الأكبر يقوم به الوالدين في تلقين وتعليم بعض الآيات القرآنية، والمبادئ الأولى للكتابة والخط، وتأخذ الدروس في المنزل ألواناً مختلفة، وهكذا يمكن اعتبار الوالد هو المعلم الأول في حياة طفله[30].

بعدها يتوجه المتعلم إلى المرحلة الثانية، التي يحتاج الطفل فيها إلى تعليم ممنهج أفضل وأحسن، حيث يصير الأستاذ ضروريا[31] وهنا ينتقل الطفل إلى مرحلة الدراسة في المكتب أو الكُتَّاب وهو المكان الذي يتعلم فيه الصغار، ويوجد الكثير من هذه الكتاتيب في المساجد، وتُخصص أماكن أخرى لها خارج المساجد أيضاً.

وما من شك أن المسجد عند المسلمين كان يؤدي رسالة أكبر مما كان يتصوره البعض من أنه مكان عبادة فقط، بينما هو إلى جانب ذلك مركز إشعاع علمي للمجتمع،

ومنار هدى للناس، وهكذا كان المسجد بالنسبة للأندلسيين موضعاً للعبادة وللعلم معاً، وهو ما أشار إليه المقري بقوله: "ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة"[32].

وكان بكثير من المساجد والجوامع مكاتب لتعليم الأطفال وتربيتهم، يقوم على أداء هذه المهمة المعلمون أو المؤدبون، والمكتب عبارة عن مكان يتسع لمجموعة من الأطفال، يكون مناسباً لتلقي العلم والتربية السليمة من قبل المؤدبين.

وبسبب كثرة المترددين على المساجد، فقد اضطر الأندلسيون إلى إقامة كتاتيب أخرى خارج المساجد، قد تكون في غرفة من المنزل، أو حانوتاً يُكترى، أو فناءاً أو غير ذلك، ومن أشهر المكاتب في الأندلس والتي ورد ذكرها في المصادر المختلفة ما أمر بتشييده الخليفة الحكم المستنصر[33] وهي سبعة وعشرون مكتباً منها ثلاثة أُلحقت بالمسجد الجامع بقرطبة، والباقي تم توزيعها على أرباض المدينة، وعيَّن لها المعلمين والمؤدبين[34].

وبعد الكُتَّاب ينتقل الصبي إلى الدراسة في المسجد، وهناك يلتقي بشيوخه ومعلميه، وعليه في هذه الحالة أن يدقق في اختيار الشيخ الذي سيتقدم للدراسة على يديه، وعلى الآباء أن يساعدوه في ذلك، فيختارون له من يثقون في خُلقه أولاً وفي علمه ثانياً، ولم يكن في هذه السن التي تجاوزت سن الكُتَّاب منهج تعليمي محدد يسير عليه الطلاب والمعلمون، إنما كان هناك شيوخ ومعلمون في كل فن من فنون العلم، ومن ذلك المتخصصون في العلوم الدينية بتفرعاتها الكثيرة، وعلوم العربية بأقسامها الواسعة والكبيرة، بالإضافة إلى معلمي الحساب والرياضيات، أو البارعين في المجالات العلمية الأخرى.

كانت المساجد تضم حلقات العلم والدرس في هذه المراحل من التعليم، وكان طلاب العلم يدرسون فيها علوم الدين والأدب والتاريخ والجغرافيا والطب والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم[35] ومن أشهر المساجد في الأندلس المسجد الجامع بقرطبة، وجامع الزهراء، وجوامع إشبيلية وطليطلة وشاطبة ومرسية وغرناطة[36] حيث شاركت هذه الجوامع في حركة البناء الحضاري والتطور العلمي، وذلك بما قدمته من نشاط كبير تمثل في ما أخرجته من علماء أجلاء كان لهم إنتاج علمي وفير وإسهام بالغ في شتى حقول العلم والمعرفة.

وبالرغم من تركُّز التعليم في المساجد والجوامع، إلا أن هناك الكثير من حلقات الدرس وندوات العلم كانت تُعقد في أماكن أخرى، فقد عرفت البيوت والمنازل كثيراً من حلقات العلم، كما تلقَّى الطلبة كثيراً من دراساتهم وتجاربهم في أماكن أخرى غير المساجد، كما أن الإهتمام بالفلسفة لدى البعض دفعهم إلى قراءة كتبها وتدارس موضوعاتها في مواطن أخرى غير المساجد[37].

وتجدر الإشارة إلى أن علوماً أخرى كالفلك والرياضيات والكيمياء وغيرها من العلوم البحتة كانت حلقاتها الدراسية تُجرى في أماكن أخرى غير المساجد أيضاً، وذلك حتى يتمكن الطلبة من إجراء تجاربهم العلمية، وتحتاج هذه الأماكن إلى ممارسة نشاط حر قد لا يتلائم مع مكانة المسجد ومنزلته، لذلك كانت تُخصص أماكن خارج المسجد لدراسة تلك العلوم.

إن هذه الظواهر العلمية تعطينا دلالة واضحة على ما بلغه الأندلسيون في مجال التعليم والتدريس، كما أن فيها إشارة إلى أن الجامع لم يكن هو المركز الوحيد للعلم والمعرفة – على الرغم من كونه المركز الرئيسي لتلقي العلوم والمعارف – إلا أنه كانت هناك أماكن أخرى مخصصة للتعليم في الأندلس.

خامساً: عناية الخلفاء والحكام بالتعليم:

سعى حكام الأندلس وخلفائها إلى العناية بالعملية التعليمية برمتها، إصراراً منهم على تأمين وسائل العلم والتعليم لأفراد شعبهم الأندلسي، وكان عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر[38] عهداً زاهراً مزدهراً شهد المجتمع الأندلسي فيه نهضة واسعة في ميدان العلم والتعليم.

ولا ريب أن الخليفة الناصر قد أسهم بجهد بارز في ذلك النشاط العلمي[39]، ويتبين ذلك خصوصاً من خلال الإشارات التي أوردها الدارسون المحدثون، والتي تذكر أنه كان في عصر الناصر في قرطبة وحدها ما يقارب من الثمانين مكاناً للتدريس[40].

وقد واصل الخليفة الحكم المستنصر جهود والده الناصر في الإعتناء بالتدريس والتعليم، ويأتي في مقدمة جهوده في هذا الميدان إسهامه في رفع شأن التعليم في بلاده وتوفيره وتيسيره لرعيته، حيث أمر بإنشاء سبعة وعشرين مكتباً أُلحق ثلاثاً منها بالمسجد الجامع بقرطبة، والباقي فرَّقه على أرباض المدينة، وقام بتعيين الفقهاء والعلماء للقيام بتدريس الأطفال في تلك المكاتب[41] وأجرى عليهم المرتبات وأغدق عليهم الصلات وبالغ في تعليم أطفال المسلمين[42].

ولم يكتف الخليفة المستنصر بما تقدم من جهود في سبيل الإعلاء من شأن العلم والتعليم في الأندلس، بل نجده يسعى إلى الأفضل في سبيل الرقي بالمستوى العلمي، وفي هذا الشأن يذكر ابن عذاري أنه في سنة (364هـ / 974م) – أي قبل وفاة المستنصر بسنتين – حبس حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء[43] كما ذكر ابن عذاري أيضاً أنه كانت تُعقد بعض حلقات العلم والدرس ليلاً، وفي ذلك دليل على عناية الأندلسيين بالعلم وجهدهم المبذول في سبيل تحصيله.

وهكذا يكون الخليفة الحكم المستنصر قد أتاح الفرصة لجميع أفراد المجتمع الأندلسي في الإستفادة مما وفَّره لهم من وسائل تساعدهم على اكتساب المعارف وتلقي العلوم، فلم يعد بذلك العلم قاصراً على ذوي القدرة على الناس بل أصبحت فرص التعليم متاحة لكل شخص يريد ذلك[44].

ولم يكن الحاجب المنصور بن أبي عامر[45] أقل ممن سبقه، بل عُرف عنه أنه كان من رُوَّاد الحركة العلمية والفكرية، وأنه كان لنشأته العلمية أثر كبير في تشجيعه للعلم وإكرامه للعلماء، وقد كان مُحباً لمجالس العلم وندوات الوعظ وحلقات الدرس، وكان حريصاً على التردد عليها وحضورها[46].

كما أشارت المراجع إلى أن المنصور سار على نهج الخليفة الحكم من حيث الإهتمام بالتعليم وتوفيره للأندلسيين، وأنه كان كثيراً ما يحضر حلقات الدروس ويستفسر الطلاب عن مشاكلهم، ويحثهم على بذل الجهد في سبيل اكتساب العلوم والمعارف، ويمنح المتفوقين منهم المكافئات المجزية[47].

لقد كانت عناية الخلفاء والحكام بالعملية التعليمية في الأندلس كبيرة، وكانت إسهاماتهم واضحة في هذا المجال، حيث قاموا بتوفير الإمكانيات والوسائل اللازمة لسير عملية التعليم على أكمل وجه، وبما أن الأندلسيون كانوا يتمتعون بميل كبير ورغبة صادقة نحو العلم والمعرفة، كانت تلك الإمكانات والوسائل التي وفرها الخلفاء والحكام حافزاً لكافة طبقات المجتمع الأندلسي على التسابق إلى ميادين العلم والمعرفة، وتحصيل العلوم والآداب.

سادساً: المرأة والتعليم:

لم تكن المرأة الأندلسية بمنأى عن ساحات الأنشطة العلمية المختلفة في المجتمع الأندلسي، فقد تلقَّت المرأة نصيباً وافراً من العلم والمعرفة، كما أن الأندلسيون

لم يفرّقوا في التعليم بين الرجل والمرأة وبين الصغير والصغيرة، بل رأوا أنه من حسن التربية أن تفقه المرأة دينها وتأخذ بشيء من الأدب.

وقد شاركت المرأة في النشاط التعليمي كمعلمة للنساء، تشير إلى ذلك نماذج كثيرة حملتها المصادر، منها أنه كان لحزم المعلم من أهل قرطبة إبنة تقوم بالتدريس والتعليم للنساء والبنات، وكان أبوها وأخوها يعلمان الأولاد، وكان بيتهم أشبه بالمدرسة[48] وكان البيت من السعة بحيث يستوعب ثلاث مجموعات، مجموعتين من الأولاد ومجموعة من الفتيات.

ومن دلائل التفوق العلمي وازدهار التعليم في المجتمع الأندلسي ما عُرف عن بعض حلقات العلم التي كانت تعقدها بعض النساء ممن وصلن إلى درجة عالية من العلم والأدب، فقد كانت الأديبة "مريم بنت يعقوب الفصولي" (كانت حية بعد 400هـ / 1009م) كانت تعلم النساء وتعطيهن دروساً في الأدب مع احتشام وعفة، وكانت مقيمة بإشبيلية وطال عمرها حتى بلغت سبعين سنة[49].

كما أمدتنا المصادر بإشارات أخرى إلى نساء عملن كمعلمات، منهن "ولادة بنت المستكفي" التي كانت أستاذة "مهجة بنت التياني" القرطبية[50]، وكذلك "إشراف السويدية" العروضية (ت 443هـ / 1051م) التي فاقت من أخذت عنهم في علم العروض[51].

بناءاً على ما تقدم فإن المرأة الأندلسية نالت نصيباً وافراً من التعليم، فظهر من بين نساء الأندلس فقيهات وشاعرات وأديبات، كما ساهمت المرأة الأندلسية في العملية التعليمية عن طريق تعليم الفتيات والنساء، وعقد بعض الحلقات والندوات العلمية، وبذلك كان إسهامها واضحاً في هذا المجال.

سابعاً: التعليم والإزدهار الحضاري في الأندلس:

مجَّد الأندلسيون العلماء والفقهاء ورجال الأدب، وكان لهؤلاء القيادة والريادة في المجتمع الأندلسي[52]، أما العلماء فقل من تجده متبحرًا في علم واحد أو علمين، بل فيهم من يُعد من الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والأدباء والمؤرخين واللغويين[53]، ولم يقتصر الأندلسيون على العلوم الدينية واللغوية فحسب، بل كانت لهم دراسات في العلوم الأخرى[54]، كالفيزياء، وعلم العقاقير، والرياضيات والطب والفلك، وعلم الزراعة الذي أبدعوا فيه وصنفوا التصاميم المشهورة، مسجلين ما توصلت إليه تجاربهم في النباتات والتربة[55].

ويبدو الفرق شاسعاً بين حال المجتمع الأندلسي ونظيره الأوروبي في فترة العصور الوسطى، فقد كان الشعب الأندلسي يمثل شعلة متقدة بنور المعرفة، وكان مما يسر النفس ألا ترى طفلاً أو طفلة بلغ الثامنة عشر ولم يتزود بالعلم الكافي على الأقل لتأهيله للقراءة والكتابة[56]، وفي الوقت الذي لم يكن في أوروبا غير قلَّة بسيطة من الرهبان ممن يعرف القراءة والكتابة، كان كل فرد في الأندلس تقريباً يقرأ ويكتب ويلم ولو بقدر من ألوان المعرفة[57].

وقد أدرك الغربيون مدى ما كان يتمتع به الأندلسيون من حضارة زاهرة وتقدم علمي كبير، فلم يخفوا إعجابهم بذلك، من بينهم زيغريد هونكه التي تحدثت عن قرطبة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ووصفتها بأنها سيدة التمدن، بل وأكبر مدن أوروبا كلها مما حوته من مظاهر الحضارة الفكرية والعمرانية[58].

وهكذا يتضح لنا حقيقة الإزدهار العلمي الذي ساد أرجاء الأندلس، والذي كان دافعاً قوياً ليتجه الأوروبيون نحو مصادر الإشعاع الفكري في قرطبة وأشبيلية ومالقة وغرناطة وغيرها من المدن الأندلسية ليأخذوا من ألوان المعرفة والثقافة، وهو ما أكده الكثير من الكتاب الغربيين.

خلاصة:

إن ميدان التعليم في الأندلس كان قناة هامة من قنوات ازدهار الحياة العلمية والفكرية، وكانت آثاره التربوية تنعكس بجلاء على كثير من العلماء، فغرس في نفوسهم الصفات العلمية الجادة، التي دفعتهم إلى مزيد من التحصيل واكتساب المزيد من العلوم والآداب.

لقد كان النظام التعليمي الأندلسي متماشياً ومتطابقاً مع حياة الناس وعاداتهم وأحوالهم، وقد أثمر ثماراً واضحة الأبعاد ساهمت بدورها في دفع عجلة التقدم العلمي إلى أعلى المراتب والدرجات، فكم من عالم مشهور أو حافظ كبير أخرجته تلك الكتاتيب الصغيرة التي كانت تُعلِّم الصبيان في المساجد أو خارجها، وزرعت في نفسه الهمة العالية والرغبة الصادقة والروح العلمية، والعمل على تحصيل المعارف والصبر على مشاقها ومتاعبها، حيث ظهر في الأندلس علماء أعلام لا تزال بعض آثارهم تحتل الصدارة في المكتبة الإسلامية.

لقد ظل التعليم في الأندلس قائماً بمؤسساته، مشاركاً في صنع المشهد الثقافي، فالتعليم حارب الجهل لدى الأندلسيين، وعمل على تقويم سلوكهم، وأسهم في تقدمهم

الحضاري، ودعم نشأة المنتوج والزخم الثقافي، فأعطى بذلك صورة حية على مدى تحضر المجتمع الأندلسي وفلسفته في الثقافة.

- الهوامش:

(1)- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (1388هـ / 1968م)، ج 1، ص 220 - 221.

(2)- إبن خلدون، المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ص 538 – 539، سامي مكي العاني، دراسات في الأدب الأندلسي، نشر الجامعة المستنصرية، 1978م، ص 96، خوليان ريبيرا، التربية الإسلامية في إسبانيا (الأندلس)، ترجمة الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1994م، ص 63.

(3)- هو محمد بن عبد الله المعافري (486 – 543هـ / 1075 – 1148م)، المشهور بالقاضي أبو بكر بن العربي الإشبيلي المالكي الحافظ عالم أهل الأندلس ومسندهم، وهو غير محي الدين بن عربي الصوفي. ولد في إشبيلية سنة 468 هـ، تأدّب ببلده وقرأ القراءات، ثم انتقل ورحل مع أبيه سنة 485 هـ ودخل الشام فسمع من الفقيه نصر المقدسي وأبي الفضل بن الفرات وببغداد من أبي طلحة النعالي، وبمصر من الخلعي وتفقه على الغزالي وأبي بكر الشاشي والطرطوشي، كما تتلمذ على يد المازري في المهدية. له شهرة في علمه فقد أخذ جملة من الفنون حتى أتقن الفقه والأصول وقيد الحديث واتسع في الرواية وأتقن مسائل الخلاف والكلام وتبحّر في التفسير وبرع في الأدب والشعر. صنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ. وولي قضاء إشبيلية، مات في فاس سنة 543 هـ، ودفن بها. قال عنه ابن بشكوال: هو الإمام الحافظ، ختام علماء الأندلس. إبن بشكوال، كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، القاهرة، 1966م، ج 2، ص 590.

(4)- إبن خلدون، المصدر السابق، ص 539.

(5)- المصدر نفسه، ص 539 – 540.

(6)- محمد عيسى، تاريخ العلم في الأندلس، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982م، ص233.

(7)- هو أحمد بن عفيف بن عبد الله الأموي (348 – 420هـ / 959 – 1029م).

(8)- إبن بشكوال، المصدر السابق، ج 1، ص 38 - 39.

(9)- ويُدفع الأجر للمعلم في كُتَّابه، أو جاء إلى البيت، طبقًا للعقد، ويكون سنويًّا، ويتضمن المادة أو المواد المطلوب تعليمها، وشكل التعليم، والزمن المخصص لها، وشروط دفع النفقات من مال يُدفع آخر العام، أو مواد غذائية من دقيق وزيت تُدفع شهريًّا، ومن العادات المتأصلة أن تُقدم الهدايا للمعلم في عيدي الأضحى والفطر، وأخرى أجل وأكبر حين يختم الطفل القرآن، أنظر: الطاهر أحمد مكي: دراسات عن ابن حزم، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 1993م، ص 45.

(10)- المقري، المصدر السابق، ج 1، ص 220 – 221.

(11)- محمد عيسى، المرجع السابق، ص 211 – 212.

(12)- المرجع نفسه، ص 220.

(13)- هو أحمد بن عثمان بن سعيد الأموي الداني (ت 481هـ / 1071م).

(14)- إبن بشكوال، المصدر السابق، ج 1، ص 65.

(15)- هو عبد الله بن سعيد الشنتجيالي القرطبي (ت 436هـ / 1044م).

(16)- إبن بشكوال، المصدر السابق، ج 1، ص 65.

(17)- هو القاضي أبو المطرف عبد الرحمن بن فطيس (ت 402هـ / 1007م)، ينتسب إلى أحد الأسر القرطبية الواسعة الثراء، وكان يملك حيًّا بأكمله يقوم حول البيت الذي يسكن فيه، وقد أمر ببناء مكتبة خاصة برع المهندسون فيها، تولى القضاء والوزارة في عهد الحاجب المنصور ابن أبي عامر وقلَّما اجتمع ذلك لأحدٍ في الأندلس، إبن بشكوال، المصدر نفسه، ج 1، ص 255.

(18)- إبن بشكوال، المصدر نفسه، ج 1، ص 64.

(19)- هو عبد الله بن فرج بن غزلون اليحصبي الطليطلي (ت 487هـ / 1094م).

(20)- إبن بشكوال، المصدر السابق، ج 1، ص 64.

(21)- هو عبد الله بن أحمد بن عثمان الطليطلي (ت 418هـ / 1062م).

(22)- إبن بشكوال، المصدر السابق، ج 1، ص 226.

(23)- أبو محمد علي بن حزم الأندلسي (384 – 456هـ / 994 – 1064م)، يُعد من أكبر علماء الأندلس وأكبر علماء الإسلام تصنيفًا وتأليفًا بعد الطبري، وهو إمام حافظ، فقيه ظاهري، ومُجدد القول به، بل مُحيي المذهب بعد زواله في الشرق. ومتكلم، أديب، وشاعر، ونسَّابة، وعالم برجال الحديث، وناقد محلل، بل وصفه البعض بالفيلسوف، عمل وزير سياسي لبني أمية، سلك طريق نبذ التقليد وتحرير الأتباع، قامت عليه جماعة من المالكية وشُرِّد عن وطنه. توفي في منزله في

أرض أبويه منت ليشم المعروفة بمونتيخار حالياً، وهي قرية صغيرة قريبة من ولبة. المقري، المصدر السابق، ج 2، ص 288، وانظر أيضاً:

Roger Arnoldez, Grammaire ET theologie chez ibn hazm de cordove essal sur Les létérature Et les conditions de pensée musulmane, librairie philosophique, Paris, 1956, P.19.

Camilla Adang, Maribel Fierro, Sabine Schmidtke (eds.): 'Ibn Ḥazm of Cordoba: The Life and Works of a Controversial Thinker,' Leiden u.a.: Brill, 2013, P. 15 – 22.

(24)- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (403 - 474 هـ / 1013 – 1081م) فقيه مالكي ومحدّث وقاضي وشاعر أندلسي، له العديد من التصانيف، ولد في بطليوس التي انتقل منها جده إلى باجة فنسبوا إليها. درس الباجي في الأندلس وفي سنة 426 هـ رحل إلى المشرق، فأقام بمكة مع أبي ذر الهروي ثلاث سنوات يأخذ عنه علم الحديث والفقه والكلام، ثم أقام ببغداد ثلاثة أعوام يدرس الفقه ويسمع الحديث من الفقهاء، ثم انتقل إلى دمشق، وأقام سنة في الموصل يدرس الحديث والفقه والكلام والأصول والأدب، وسمع بمصر من أبي محمد بن الوليد وغيره، ثم عاد إلى الأندلس بعد 13 سنة سنة 439 هـ، فاجتمع حوله التلاميذ فدرس على يديه الكثيرون ومنهم ابن عبد البر وابن حزم وعلي بن عبد الله الصقلي وأبي عبد الله الحميدي وأحمد بن علي بن غزلون وأبو علي بن سكرة الصدفي وأبي بكر الطرطوشي وابنه أبي القاسم أحمد بن وغيرهم. ففشى علمه، وعظم جاهه، فأجزل الأمراء صلاته، واستعملوه في مراسلاتهم، وأولوه القضاء بمواضع في الأندلس. كما كانت بينه وبين ابن حزم مجالسات ومناظرات. وذكر ابن بشكوال أنه روى عن الخطيب البغدادي وروى الخطيب عنه. توفي أبو الوليد الباجي بألمرية سنة 474 هـ، ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، مطبعة المدينة، 1972م، ج 1، ص 377 – 379.

(25)- الإجازة: من جاز وهي تأتي على معاني كثيرة في لغة العرب منها الإنفاذ والإمضاء والسلوك والقبول والإباحة والتسويغ والإذن والاحتمال والعطاء، ومعنى الإجازة مأخوذ من جواز الماء الذي يُسقاه المال من الماشية والحرث، يُقال منه: استجزت فلاناً فأجازني، إذا سقاك ماءاً لأرضك وماشيتك، كذلك الطالب يسأل العالم أن يُجيزه علمه فيجيزه إياه، والطالب في هذه الحالة مُستجيز والعالم مُجيز، الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 312.

(26)- بخصوص أنواع الإجازة وشروطها راجع: محمد عيسى، المرجع السابق، ص 405 - 415.

(27)- أصبح منح الأستاذ الإجازة عملاً قائماً بذاته، وكانت تُسجل في الكتب التي يدرسها الطالب، وبخط الأستاذ نفسه، وكانت في البداية بسيطة دون ادعاء، لكنها تغيرت بعد ذلك، ونجد صدى ذلك عند "أبو العباس العمري وليد بن بكر بن مخلد السرقسطي" الذي ألَّف كتاباً سمَّاه "الوجازة في صحَّة القول بالإجازة" حيث يحتج في هذا الكتاب على مثل هذه الإجازات العلمية، ويرى أنها غير صادقة دائماً، وتسودها المجاملة ويشملها التزييف، وأيَّده في ذلك الشيخ "أبو ذر الهروي" الذي قال: "لو صحَّت الإجازة لبطلت الرحلة"، إبن بشكوال، المصدر السابق، ج 1، ص 202، خوليان ريبيرا، المرجع السابق، ص 149.

(28)- رفعت عبيد، فضل العرب على أوروبا في ميدان نشأة وتطور النظام الجامعي في العصور الوسطى، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 62 – 63، أكتوبر – نوفمبر، 1978م، ص 84.

(29)- محمد عيسى، المرجع السابق، ص 414.

(30)- المرجع نفسه، 215.

(31)- خوليان ريبيرا، المرجع السابق، ص 136.

(32)- المقري، المصدر السابق، ج 1، ص 220.

(33)- الحكم المستنصر بالله (350 – 366هـ / 961 – 976م)، تاسع أمراء الدولة الأموية في الأندلس وثاني خلفاء الأندلس بعد أبيه عبد الرحمن الناصر، كان عصره امتداداً لفترة زهوة الدولة الأموية في الأندلس الذي بدأ في عهد أبيه، وقد اشتهر الحكم بعشقه للعلم واقتناء الكتب، إبن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، نشره وصححه عزت العطار الحسيني، مطبعة السعادة، القاهرة، 1953م، ج 1، ص 200، المقري، المصدر السابق، ج 1، ص 395.

(34)- إبن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ليفي بروفنسال و ج. س. كولان، دار الثقافة، بيروت، ج 2، ص 240 - 241.

(35)- عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، دار المعارف بمصر، مطبعة معهد دون بوسكو، الإسكندرية، ط 4، 1981م، ص 54 - 55.

(36)- محمد عيسى، المرجع السابق، ص 211 - 212.

(37)- خوليان ريبيرا، المرجع السابق، ص 145.

(38)- أبو المطرّف عبد الرحمن الناصر لدين الله (300 – 350هـ / 912 – 961م)، ثامن حكام الدولة الأموية في الأندلس، وأول خلفاء قرطبة بعد أن أعلن الخلافة في مستهل ذي الحجة من عام 316هـ، والمعروف في الروايات الغربية بعبد الرحمن الثالث تمييزًا له عن جديه عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) وعبد الرحمن بن الحكم (الأوسط)، استطاع عبد الرحمن الناصر إخماد التمردات الداخلية والخارجية على سلطة الدولة، فاستعاد هيبتها وبسط سلطته على كافة أنحاء دولته، وبفضل الاستقرار السياسي والمغانم العسكرية، انتعشت الأندلس في عهده اقتصاديًا وعسكريًا. المقري، المصدر السابق، ج1، ص 379.

(39)- راجع: محمود علي مكي: الثقافة الدينية في الأندلس في عصر عبد الرحمن الناصر، أُلقي هذا البحث في الجلسة السادسة من مؤتمر المجمع في الدورة السادسة والستين بتاريخ 3 من المحرم سنة 1421هـ الموافق 8 من أبريل نيسان سنة 2000م، وراجع أيضاً: مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة / ع 91، ص 133.

(40)- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب فاروق بيضون وكمال دسوقي، مراجعة فاروق عيسى الخوري، منشورات المكتب التجاري، بيروت، ط 2، 1969م، ص499.

(41)- يوسف أحمد يوسف: علم التاريخ في الأندلس، مؤسسة حمادة للنشر، عمان، الأردن، ط 1، 2002 م، ص 25، وانظر أيضاً: Apolitical history of muslim Spain, Imamudin M. , Dacca, 1969, P. 167.

(42)- إبن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج 1، ص 240 – 241، إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ط 6، 1981م، ص 71، ولز (هـ – ج)، معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، دار المعارف، القاهرة، ط 3، 1972م، ج 3، ص 830، لوثروب استوادرد، حضارة العالم الإسلامي، ترجمة عادل نويهض، دار الفكر، بيروت – القاهرة، ط 4، 1973م، ج 1، ص 139، محمد كرد علي، الإسلام والحضارة الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1968م، ج 1، ص 262، سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، 1977م، ص 424.

(43)- إبن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج 2، ص 241.

-(44)Anwar G. Chejne, Muslim Spain its history and culture, the Universiity of Minnesore Press, Minnea Polis, 1973, P. 164.

-(45) الحاجب المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر (366 – 392هـ / 976 – 1002م) حاجب الخلافة والحاكم الفعلي في الأندلس في عهد الخليفة هشام المؤيَّد. بدأ حياته السياسية وتدرَّج في المناصب منذ عهد الخليفة الحكم المستنصر، وكان على علاقة وطيدة بزوجة الخليفة صبح البشكنجية أم الخليفة هشام المؤيد، والتي كانت وصية على عرش ولدها بعد وفاة زوجها الحكم. عاونت صبح الحاجب المنصور على إقصاء جميع منافسيه، ولكنه حجر على الخليفة الصبي، وقيَّد سلطته هو وأمه. وسَّع المنصور الدولة شمالاً، وحرَّك بحملاته العسكرية حدود الممالك المسيحية في الشمال إلى ما وراء نهر "دويرة"، فبلغت الدولة الأموية في الأندلس أوج قوتها في عهده. المقري، المصدر السابق، ج 3، ص 287 – 288.

-(46) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 1969م، ج 2، ص 703.

-(47) عبد الكريم التواتي، مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس، مكتبة الرشاد، الدار البيضاء، ط 1، 1967م، ص 223.

-(48) إبن الأبار، المصدر السابق، ج 1، ص 281.

-(49) الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سجل العرب، القاهرة، 1966م، ص 412، إبن بشكوال، المصدر السابق، ج 1، ص 294.

-(50) إبن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1964م، ج 1، ص 143.

-(51) المقري، المصدر السابق، ج 4، ص 112.

-(52) Juan Vernet Gines, Literatura arabe, Barcelona, 2000, p.115.

-(53) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط1، 1940م، ج3، ص 331.

(54)- مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1983م، ص 71.

(55)- راجع: ابن بصال، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم (ت حوالي 498هـ)، كتاب الفلاحة، تحقيق وترجمة وتعليق خوسي مارية مياس بييكروسا ومحمد عزيمان، منشورات معهد مولاي الحسن، تطوان، 1955، ص11- 36.

(56)- جلال مظهر، علوم المسلمين أساس التقدم العلمي الحديث، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970م، ص 81، سامي العاني، المرجع السابق، ص 95.

(57)- روم لاندو، الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، ص 178، محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، (1398هـ / 1978م)، ص 99.

(58)- زيغريد هونكه، المرجع السابق، ص 499.